المتلقي الصريح في النقد القديم

الأستاذ : علي رحماني
قسم اللغة العربية و أدابها
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

يسعى هذا المقال إلى استقراء مفهوم المتلقي في النقد العربي القديم، وارتباطه بمفهوم القارئ العارف بخبايا الشعر واللغة سماعا وقراءة. كما يسعى إلى تحديد هويته الاجتماعية خليفة أو أميرا أوناقدا.

Résumé:

Cet article tend a designer la notion de récepteur dans la critique littéraire arabe ancienne ainsi que sa tendance avec la notion de lecteur savant ayant connaissance poétique et linguistique.
D'autre part il tend a déterminer l'identité sociale eu tant que Kalifa, ennui ou savant critique.

نستطيع أن نطلق تسمية المتلقي الصريح على كل من يتلقى الشعر عندما تصدر عنه تعليقات أو ملاحظات حول الشعر الذي سمعه أو قرأه، وبناء عليه فإن تسمية المتلقي الصريح تنطبق على الخليفة أو الأمير الذي يُنْشَدُ الشعر في حضرته، أو على الحضور في مجالس الخلفاء والولاة، أو على الناقد الذي يدلي برأيه في الشعر الذي سمعه أو يقرأه . وكذلك نستطيع إطلاق تسمية المتلقي الصريح على المبدع ذاته: ((فلا يكتفي المبدع بتدوين ما انثال عليه من الألفاظ والمعاني انثيالاً إلا في الأشعار التي تفرضها بعض وضعيات الخطاب... ولكن من الثابت أن من الشعراء من يعود إلى شعره لإعمال النظر فيه بالزيادة والحذف بغية تجويده وإخراجه على أتم وجه. وقد اصطلح القدامى على تسمية هذه القصائد بالحوليات والمنقحات والمقلدات والمحكمات))(1). ومثال ذلك خبر مفاده أن أبا الدقاق قال: ((قرأت على أبي تمام أرجوزة أبي نواس التي مدح فيها الفضل بن الربيع: ❖وَبَلْدَةٍ فِيهَا زَوَرٌ❖ فاستحسنها وقال: سأروض نفسي في عمل مثلها، فجعل يخرج إلى الجنينة ويشتغل بما يعمله، ويجلس على ماء جارٍ، ثم ينصرف بالعشي، حتى فعل ذلك ثلاثة أيام ثم خَرَّقَ ما عمل، وقال: لم أَرْضَ ما جاءني))(2). هذا يعني أن الشاعر يعاني حين ينظم الشعر ويعود إلى شعره لينظر فيه ويجري التعديل عليه وإذا لم يرضه خرَّقه واستغنى عنه.

ونذكر من أمثلة المتلقي الصريح مواقف بعض الخلفاء من الشعر، فقد كان لملاحظاتهم النقدية على الشعر ((دور في تحديد مفاصل النص، سواء أكان ذلك في ترتيب أجزاء القول من جهة تدرجها وتسلسلها، أم في ترتيب معانيه ضمن الجزء الواحد، ليدل على وعيه بأهمية البناء الشعري وترتيبه على نحو مخصوص يرعى الحالات التي يكون عليها السامع))(3). ومثال تدخل المتلقي الصريح في ترتيب معاني النص هو ملاحظة سيف الدولة على شعر المتنبي حين مدحه قائلاً :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

فقد أنكر سيف الدولة البيتين على صدريهما، وقال له: ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثاني، وعجز الثاني على الأول، ثم قال له: وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبِ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَال

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلَيَّ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَال

ووجه الكلام في البيتين كما قال أهل العلم بالشعر أن يكون عجز الأول على الثاني، والثاني على الأول ليستقيم المعنى، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكَرِّ، سبء الخمر مع تبطن الكاعب.

وفي ذلك دلالة على تدخل المتلقي الصريح وهو الأمير سيف الدولة هنا في ترتيب المعاني.

((كما يحكى عن شاعر أتى نصر بن سيار بأرجوزة فيها مئة بيت نسيباً وعشرة أبيات مديحاً فقال له نصر: والله، ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك، فإن أردت مديحي فاقتصد في النسيب، فغدا عليه فأنشده:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ لأُمِّ الْغَمْرِ دَعْ ذَا، وَجَرِّ مَدْحَةً فِي نَصْرِ

فقال نصر: لا هذا ولا ذاك، ولكن بين الأمرين)(4).

نستنتج من هذا الخبر أن الأصل في بناء المديح أن يقتصر النسيب ويطول المدح، ((وعدول النص عن هذه الناحية التي هي سنة في بناء الشعر سبب في انصراف المستمع عنه، أو أنه يضطر إلى إكراه المنشئ إلى اسنن المتبعة في البناء، ومن هنا حدد الذوق النقدي الذي يمثل من وجهة نظرنا جانباً مهماً من جوانب تلقي الشعر، أسلوباً في بناء الشعر وترتيب أجزائه ومعانيه في المدح والرثاء والهجاء يناسب الحالات التي يكون عليها السامع. وإذا ما خرج الشاعر عن هذه الرسوم حدث كما يقول المبخوت خلل ظاهر في بناء المعاهدة الأدبية التي تنعقد بين النص والمتلقي))(5).

ويتجلى لنا عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي متلقياً صريحاً في تعليقه على بيت مدحه فيه عبيد الله بن قيس الرقيات:

يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فقال له عبد الملك: تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ عَزٍّ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً))(6) لم يتلق الخليفة المديح بالقبول والحفاوة لأن الشاعر كان قد مدح عدو الخليفة بفضائل نفيسة، في حين أنه مدحه بفضائل جسيمة.

ويبدو محمد بن عبد الملك الزيات متلقياً صريحاً في قوله لأبي تمام :

((يا أبا تمام إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً بهي الجواهر في أجياد الكواعب. وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة))(7).

ومثال آخر عن المتلقي الصريح يبدو لنا فيما رواه الصولي عن أبي تمام لمّا أنشد قصيدته بين يدي أحمد بن المعتصم، وكان الكندي موجوداً في مجلس الأمير:

((حدثني محمد بن يحيى بن أبي عباد قال: حدثني أبي قال: شهدت أبا تمام ينشد أحمد بن المعتصم قصيدته التي مدحه بها:

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ تَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبَعِ الأَدْرَاسِ

فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تُعِينَ بِمَائِهَا وَالدَّمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي

فلما قال:

أَبْلَيْتَ هَذَا المَجْدَ أَبْعَدَ غَايَةً فِيهَ وَأَحْرَمَ شَيْمَة نَخَاسِ

إِقْدَامُ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

قال له الكندي وكان حاضراً وأراد الطعن عليه: الأمير فوق من وصفت، فأطرق قليلاً، ثم زاد القصيدة بيتين لم يكونا فيه:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُوَرِهِ مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالنِبْرَاسِ

قال فعجبنا من سرعته وفطنته))(8) .

ومثال تدخل المتلقي الصريح في الشعر وإكراه المبدع على تغيير معانيه:

((لما أنشد الأخطل عبد الملك ❖خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا مَنْكَ أَوْ بَكَرُوا❖

قال عبد الملك: بل منك، لا أمَّ لك! وتطير عبد الملك من قوله، فعاد فقال :

❖فراحوا الْيَوْمَ أو بكروا❖(9).

فعدل عن لفظ (منك) إلى لفظ (اليوم) لئلا ينفر المتلقي من الشعر.

يبدوا لنا الوليد بن عبد الملك متلقياً صريحاً في الخبر التالي: ((دخل العجاج على الوليد بن عبد الملك فأنشد:

❖كَمْ قَدْ حَسَرْنَا مِنْ عَلاَةٍ عَنْسِ❖

فصار في قوله:

بَيْنَ اِبْنِ مَرْوَانَ قَرِيعِ الإِنْسِ وَابْنَةِ عَبَّاسٍ قَرِيعِ عَبْسِ

فقال الوليد : ما صنعت شيئاً، أفرغت مدحك في عمر بن عبيد الله بن معمر إذ قلت :

حَوْلَ اِبْنِ عَزَّاءَ حَصَانٍ إِنْ وَتَرْ فَازَ وَإِنْ طَالَبَ بِالْوَغْمِ اقْتَدَرْ

إِذَا الْكِرَامُ ابْتَاعُوا الْبَاعَ بَدَرْ

وتقول فيَّ:

بَيْنَ اِبْنِ مَرْوَانَ قَرِيعِ الإِنْسِ وَابْنَةِ عَبَّاسٍ قَرِيعِ عَبْسِ

فقال: يا أمير المؤمنين: إن لكل شاعر غربا، وإن غربي ذهب في ابن معمر.
وقال أبو عبيدة: فقال: فإن لكل شاعر حُمة، وكانت هذه الأرجوزة حُمتي فقذفتها))(10) .
لم يتقبل الوليد هذا المدح تقبلاً حسناً لأنه رأى أنه مُدح بمعاني أقل أهمية وجمالاً مما مدح به عبيد الله بن معمر فالحكم هنا متأثر بالعوالق النفسية للمتلقي.
((أنشد ذو الرمة عبد الملك قوله:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كَلَى مِفْرِيَّةٍ سَرِبُ

وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماءً، قال: فغضب عليه ونَحَّاهُ، فقيل له: ويحك! إنما دهاك عنده قولك: ما بال عينك...، فاقلب كلامك، فصبر حتى دخل الثانية فقال له: أنشد، فأنشَدَ:

❖مَا بَالُ عَيْنَيَّ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ❖

حتى أتى على آخرها، فأجازه وأكرمه))(11) .
مرة أخرى استطاع المتلقي وهو هنا صريح أن يجبر المنشئ على تغيير لفظه إلى لفظ آخر ليتلقاه تلقياً حسناً ولا ينفر منه .
((إن التقبل لا يمكن أن يكون محايداً قائماً على جودة النص فحسب بما أن للأهواء والأغراض الدفينة –وإن بدت هينة قليلة الأهمية- أثراً في الحكم للقول الأدبي أو عليه))(12)، وتبدو مصداقية هذا القول في المثال التالي :
((كان زياد يعطي الشعراء على قدر الشعر، فأتاه يوماً أبو الأهتم، فأنشده:

مُعَاوِيَةُ التَّقِيُّ السَّـ رِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَا

أَعْطَى ابْنَ جَعْفَرٍ مَالاً فَقَضَى عَنْهُ الدُّيُونَا

فأجزل له العطاء، فقيل له: أتعطي على مثل هذا الشعر؟ قال نعم، إن الشعر كذبٌ وهزلٌ، وأحقُّه بالتفضيل أهزَلُهُ))(13).
فقد تلقى زياد الشعر تلقياً حسناً مع علمه بأنه كذبٌ وهزلٌ، ولكنه وافق هوى في نفسه لامتداح الشاعر لمعاوية، فقد كان حكمه متأثراً بدوافع سياسية.

وقد بدا بعض الخلفاء متلقين صرحاء للشعر، يصدرون أحكاماً مُعَلَّلَةً في بعض المواقف أذكر أمثلة منها:

أخبرني الصولي عن أبي العيناء، عن الأصمعي، قال: أنشدت الرشيد أبيات النابغة الجعدي من قصيدته الطويلة:

فَتًى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

فَتًى كَمُلَتْ أَعْرَاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَلاَ يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

أَشَمُّ طَوِيلُ السَّاعِدَيْنِ شَمَرْدَلٌ إِذَا لَمْ يَرُحْ لِلْمَجْدِ أَصْبَحَ غَادِيَا

فقال الرشيد: ويله، ولم لم يروحه في المجد كما أغداه؟ ألا قال :

❖إِذَا رَاحَ لِلْمَعْرُوفِ أَصْبَحَ غَادِيَا❖

فقلت: أنت والله يا أمير المؤمنين في هذا أعلم منه بالشعر))(14).

استطاع هارون الرشيد أن يصدر حكماً نقدياً يدل على علمه بالشعر فجعل الممدوح يروح ويغدو للمعروف بدل أن يكون غادياً فقط.

((... إن لبيداً الشاعر قام على أبي بكر رحمه الله فقال:

❖أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ❖

فقال : صدقت، قال :

❖وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ❖

فقال: كذبت، عند الله نعيم لا يزول))(15) .

أصدر الخليفة أبو بكر حكمه على الشعر هنا من معيار الصدق الواقعي، فالله تعالى حق ونعيمه دائم لا يزول. ومثله قول جرير في عبد الملك بن مروان:

هَذَا ابْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةٌ لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمْ إِلَيَّ قَطِينَا

فقيل له يا أبا حرزة، لم تصنع شيئاً! عجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفاء!

فقال له عبد الملك: جعلتني شرطيا لك، أما لو قلت: لو شاء ساقكم إليَّ قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم))(16) .

فقد اعترض عبد الملك على لفظ (شئت) لأنه أنزله منزلة دنيا فقد جعله شرطياً عنده، لذا لم يتقبل مدحه تقبلاً جيداً.

((لمَّا أنشد الراعي عبد الملك بن مروان قصيدته فبلغ قوله:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ

عَرَبٌ نَرَى اللهَ فِي أَمْوَالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلاَ

فقال له عبد الملك: ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلام، وقراءة آية))(17).

فعبد الملك (وهو هنا المتلقي الصريح) لم يجد فيما سمعه من معاني الشعر شيئاً فأنكر أن يكون ما سمعه شعراً.

((اجتمع عند معن بن زائدة: ابن أبي عاصية، وابن أبي حفصة، والضمري، فقال: لينشدني كل رجل منكم أمدح بيت قاله فيَّ. فأنشده ابن أبي حفصة:

مَسَحَتْ رَبِيعَةُ وَجْهَ مَعْنٍ سَابِقًا لَمَّا جَرَى ذَوُو الأَحْسَابِ

فقال له معن: الجواد يعثر فيُمْسَحُ وجهه من العثار والغبار وغيرهما.

وأنشد الضمري:

أَنْتَ امْرُؤٌ هَمُّكَ الْمَعَالِي وَدُونَ مَعْرُوفِكَ الرَّبِيعُ

قال ما أحسن ما قلت! ولكن تسمني ولم تذكرني، فمن شاء انتحله. فقال ابن أبي عاصية :

إِنْ زَالَ مَعَهُ بَنِي شُرَيْكٍ لَمْ يَزَلْ لِنَدَى إِلَى بَلَدٍ بَعِيرُ مُسَافِرِ

ففضله عليهم))(18) .

نلاحظ أن الأمير معن بن زائدة لم يتقبَّلْ بيتي المديح تقبلاً حسناً معلِّلاً ذلك بأن الجواد يمكن أن يقع فيمسح وجهه من العثار وهذا غير مناسب في مدح الأمير، وأن البيت الثاني لم يذكر فيه اسمه فمن السهل انتحاله، أما البيت الأخير على الرغم من أنه لم يعلل سبب هذا الإعجاب.

((ماتت أم سليمان بن وهب، فجاء أبو أيوب ابن أخت أبي الوزير فعَزَّاه، وقال: لا بد من أن نسمع مرثيتي لها رحمها الله تعالى، قال: هات، أعزك الله! فأنشده:

لأُمِّ سَلِيمٍ نِعْمَةٌ مُسْتَفَادَةٌ عَلَيْنَا كَسَلْمِ الْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِرِ

عَرَانِي هَمٌّ آخِذٌ بِحَنَاجِرِ لأُمِّ سَلِيمٍ مِنْ كِرَامِ الْعَنَاصِرِ

وَكُنْتُ سِرَاجَ الْبَيْتِ يَا أُمَّ سَالِمٍ فَسَارَ سِرَاجُ الْبَيْتِ وَسْطَ الْمَقَابِرِ

فجزاه خيراً وانصرف.

فأقبل سليمان بن وهب على الناس، فقال: ما امتحن أحد بمثل أحد بمثل محنتي، ماتت أمي، وهي أعز الناس علي، ورُثِيت بمثل هذا الشعر، وكُنيت بكنيتين لا نعرف واحدة منهما، وجعلت أنا مرة سليماً -مصغراً- ومرة سالماً، وتُركَ اسمي الذي سماني به أبواي، فمن مُحِنَ بمثل محنتي!))(19).

المتلقي الصريح هنا وهو سليمان بن وهب لم يتقبل شعر الرثاء تقبلاً حسناً مع أنه أجزل العطاء للشاعر، للأسباب التي بيَّنها بقوله: إن أمه كنيت بكنيتين لم تُعْرَفْ بهما، وغُيِّرَ اسمه من سليمان إلى سليم وإلى سالم أخرى، فحكمه النقدي هنا مُعَلَّلٌ .

ويبرز المعتمد بن عباد متلقياً صريحاً، عندما ((تباحث مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فقال: ما قصر في مقابلة لفظة بضدها إلا أن فيه نقداً خفياً، ففكروا فيه، فلما فكروا قالوا له: ما وقفنا على شيء، فقال: الليل لا يطابق إلا بالنهار ولا يطابق بالصبح لأن الليل كلي والصبح جزئي، فتعجب الحاضرون، وأثنوا على تدقيق انتقاده))(20).

((نلاحظ أن المعتمد أصدر حكماً معللاً في هذا البيت، لكن حكمه لم يُرق للصفدي الذي قال :

((ليس هذا بنقد صحيح، والصواب مع أبي الطيب، لأنه قال:
(أزورهم وسواد الليل يشفع لي) فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل خوفاً ممن يشي يه، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة، ودل عليه أهل النميمة، والصبح أول ما يغرى به قبل النهار، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء، ولم تَجْرِ العادة أن الخائف يتلبث إلى أن يتوضح النهار ويمتلئ الأفق نوراً، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار والله أعلم، انتهى))(21).
كما كانت أحكام الخلفاء والولاة غير معللة في مواقف كثيرة أخرى، أو كانت أحكاماً عامة على شعر الشاعر بكامله ويبدو ذلك خاصة عند الموازنة بين شاعر وآخر فمن ذلك مثلاً :
((قيل لمسلمة بن عبد الملك: أي الشاعرين أشعر جرير أم الفرزدق؟.
قال: إن الفرزدق يبني وجرير يهدم، وليس يقوم مع الخراب شيء))(22).
((حدثنا محمد بن يحيى قال: كنا يوماً عند عبد الله بن المعتز، فقرأ شعراً لمتوج بن محمود بن مروان الأصغر بن أبي الجنوب بن مروان الأكبر، وكان شعراً رديئاً جداً، فقال أشبه لكم شعر آل أبي حفصة وتناقصه حالاً بعد حال. فقلنا: إن شاء الأمير، فقال: كأنه ماء أسخن لعليل في قدح ثم استغنى عنه، فكان أيام مروان الأكبر على حرارته، ثم انتهى إلى عبد الله بن السمط، وقد برد قليلاً، ثم إلى إدريس بن أبي حفصة، وقد زاد برده، وإلى أبي الجنوب كذلك وإلى مروان الأصغر، وقد اشتد برده، إلى أبي هذا متوج، وقد ثخن لبرده وإلى متوج هذا وقد جمد فلم يبق بعد الجمود شيء))(23). فهذا حكم عام على الشعراء يقوم على الذوق لا على التعليل. وأذكر مثالاً آخر عن الأحكام العامة على الشعر هو :
((أخبرني عبيد الله بن أحمد، قال: حدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن الحارث الخراز، عن العباس بن خالد البرمكي، قال، أو لما نبغ أبو تمام الطائي أتاني بدمشق يمدح محمد بن الجهم فكلمته فيه فأذن له، فدخل عليه، وأنشده، ثم خرج، فأمر له بدراهم يسيرة. ثم قال: إن عاش هذا ليخرجن شاعراً! فقلت: وما ذلك؟ قال: يغوص على المعاني الدِّقاق، فربما وقع من شدة غوصه على المحال))(24) .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: أنشدنا شداد بن عقبة شعراً، وقال: كيف ترى؟ فقال له الفضل بن الربيع: إن من بيوت الشعر بيتاً ملس المتون، قليلة العيون، إن سمعتها لم تَفْكَهْ إليها، ون لم تسمعها لم تحتج إليها(25).

وقوله هذا دليل على عدم تقبُّله شعر شداد وعدم إعجابه به، دون أن يُبَيِّنَ أسباب عدم تقبله له.

كان نصيب ((إذا قدم على هشام بن عبد الملك أخلى له مجلسه واستنشده مراثي بني أمية، فإذا أنشده بكى وبكى معه، فأنشده يوماً قصيدة له مدحه بها، يقول فيها:

إذَا اسْتَبَقَ النَّاسُ الْعُلاَ سَبَقَتْهُمْ يَمِينُكَ عَفْوًا ثُمَّ صَلَّتْ شِمَالُهَا

فقال له هشام: يا أسود، بلغت غاية المدح فسلني، فقال: يدك بالعطية أجود وأبسط من لساني بمسألتك، فقال: هذا والله أحسن من الشعر، وحباه وكساه وأحسن جائزته))(26).

تقبل الخليفة شعر المديح تقبلاً جيداً وأجزل العطاء لقائله وقد عبَّر المتلقي الصريح عن إعجابه بالشعر بقوله: (بلغت غاية المدح فَسَلْنِي).

((أنشد عبد الملك قول الشماخ في عرابة بن أوس:

إذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رِحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرِقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

فقال: بئست المكافأة كافأها! حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها!))(27). لم يعجب هذا المعنى عبد الملك فصرَّح بذلك.

((ودخل ابن جناح على المعتضد بن عباد في اليوم الذي أعده للشعراء، وكان الشعراء لا يعرفونه ويظنونه لا يجيد الشعر، فاتفقوا على تقديمه، فأنشده قصيدته الفائقة التي يقول في مطلعها:

قَطَّعْتَ يَا يَوْمَ النَّوَى أَكْبَادِي وَنَفَيْتَ عَنْ عَيْنِي لَذِيذَ رُقَادِي

فلما انتهى منها قال له: قد وليتك رياسة الشعراء، ولم يسمع من غيره في ذلك اليوم، وهذه القصيدة يقول فيها:

إنَّ الْقَرِيضَ لَكَاسِدٌ فِي أَرْضِنَا وَلَهُ هُنَا سُوقٌ بِغَيْرِ كَسَادِ))(28) .

أعجب المعتضد بالقصيدة فكافأ صاحبها ولم يرضَ أن يسمع من غيره في ذلك اليوم، دون أن يذكر سبب إعجابه بها.

((وأنشد أبو تمام في مجلس الحسن بن رجاء قصيدته اللامية المعروفة ولمّا وصل إلى قوله :

لاَ تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

وَتَنْظُرِي حَيْثُ الرِّكَابُ يَنُصُّهَا مُحْيِي الْقَرِيضِ إِلَى مُمِيتِ الْمَالِ

قام الحسن على رجليه وقال لأبي تمام: والله لا أتممتها إلا وأنا قائم)) (29) .

وهذا دليل على إعجاب الحسن بالقصيدة وتقبله لها.

كما برز الشعراء أيضاً في كتب نقدنا القديم كمتلقين صرحاء، وسيتضح ذلك من خلال الأمثلة التالية :

تحاكم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب، والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر أيهم اشعر؟ فقال للزبرقان: أمَّا أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو نضج فأكل ولا ترك نيئاً فينتفع به. وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر، يتلألأ فيها البصر، فكما أعيد فيها النظر نقص البصر.

وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم.

وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فيس تقطر ولا تمطر))(30).

وهذا أيضاً حكم عام على الشعر يبتعد عن التعليل.

قدم عمر بن أبي ربيعة المدينة فأقام بها حيناً وأطال ففي ذلك يقول:

يَا خَلِيلَيَّ قَدْ مَلَلْتُ ثَوَائِي بِالْمُصَلَّى وَقَدْ شَنَئْتُ الْبَقِيعَا

بَلِّغَانِي دِيَارَ هِنْدٍ وَسُعْدَى وَارْجِعَانِي فَقَدْ هَوَيْتُ الرُّجُوعَا

ثم أراد الانصراف، فقال له الأحوص: أشيعك. وخرج معه حتى نزلا ودَّان وبها منزل نصيب، فعارضها وصار معها، حتى إذا نزلوا الجحفة أو عسفان خرج الأحوص لحاجة فه فرأى كثيراً، فرجع فأخبرها، فقال عمر: ابعثوا إليه ليصير إلينا. فقال الأحوص: أهو يصير إليك هو والله أعظم كِبْراً من ذلك وَأَتِيَهُ. قال: فإذاً نصير إليه، فوجدوه جاساً على فروة فوالله ما رفع منهم أحداً، ولا أوسع لعمر بن أبي ربيعة، قال: فجلسوا إليه فتحدثوا قليلاً، ثم أقبل على ابن أبي ربيعة فقال: يا عمر –وقال بعضهم: يا أخا قريش- والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك، ولكنك تخطئ الطريق، تشبب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك، أخبرني عن قولك:

قَالَتْ لِتِرْبٍ لَهَا تُحَدِّثُهَا لَتُفْسِدَنَّ الطَّوَافَ فِي عُمَر
قُومِي تَصَدَّيْ لَهُ لِيُبْصِرْنَنَا ثُمَّ اغْمُزِيهِ يَا أُخْتُ فِي خَفَرْ

أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك –أو قال منزلك- كنت قد أسأت صفتها. أهكذا يقال للمرأة؟ إنما توصف بالخفر، وأنها مطلوبة ممنعة، هلا قلت كما قال هذا –وضرب بيده- على كتف الأحوص:

لَقَدْ مَنَعَتْ مَعْرُوفَهَا أُمُّ وَانِّي إِلَى مَعْرُوفِهَا لَفَقِيرُ
وَقَدْ أَنْكَرُوا عِنْدَ وَقَدْ وَعَرَتْ فِيهَا عَلَيَّ
أَزُورُ وَلَوْلاَ أَنْ أَرَى أُمَّ بِأَبْيَاتِكُمْ مَا زُرْتُ حَيْثُ
أَزُورُ عَلَى أَنْ لَيْسَ أَتَيْتُ عَدُوٌّ بِالْبَتَانِ
وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنَّ إِذَا لَمْ يَزُرْ لاَ بُدَّ أَنْ

هكذا والله يكون الشعر وصفة النساء، فارتاح الأحوص وامتلأ سروراً وانكسر عمر.
ثم أقبل على الأحوص فقال: وأنت يا أحوص، أخبرني عن قولك:

فإن تصلي أصلك وإن تبيني بصرمك قبل وصلك لا أبالي
وإني للمودة ذو حفاظ أو اصل من يهش إلى وصالي
وأقطع حبل ذي ملق كذوب سريع في الخطوب إلى انتقال

ويلك! أهكذا يقول الفحول؟ أما والله لو كنت فحلاً ما قلت هذا لها –وقال بعضهم أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت، هلا قلت كما قا هذا الأسود –وضرب بيده على جنب نصيب:

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ وَقُلْ إِنَّ تَمَلِّينَا فَمَا مَلَّكِ الْقَلْبُ
وَقُلْ إِنَّ قُرْبَ الدَّارِ يَطْلُبُهُ الْعِدَى قَدِيمًا وَنَأْيُ الدَّارِ يَطْلُبُهُ الْقُرْبُ
وَقُلْ إِنْ أَنَلْ بِالْحُبِ مِنْكَ مَوَدَّةً فَمَا فَوْقَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ حُبِّكُمْ حُبُّ
وَقَالَ فِي تَجَنِّيهَا لَكَ الذَّنْبُ إِنَّمَا عِتَابُكَ مَنْ عَاتَبْتَ فِيمَا لَهُ ذَنْبُ

قال فانتفخ نصيب، وانكسر الأحوص، ثم أقبل على نصيب فقال: ولكن أخبرني عن قولك يا بن السوداء:

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ فَوَا حُزْنًا مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي
وَدَعْدٌ مَشُوبُ الدَّالِ تُولِيكَ شِيمَةً لِشَكٍّ فَلاَ قُرْبِي بِدَعْدٍ وَلاَ بَعْدِي

كأنك اغتممت ألا يفعل بها بها. قال بعض القوم لبعض: انهضوا فقد استوت الفرقة. فلما خرجوا من عنده قال عمر: هذا أخبث مدخول عليه في العرب))(31).

فالمتلقي هنا كُثير الشاعر صريح أصدر أحكامه النقدية على أشعار زملائه الآخرين وعلل أسباب استحسانه بعضها ونفوره من بعضها الآخر.

وإن نقده ذاتي جعل معاني الغزل ثابتة يجب أن تحتذى، في حين أنها يمكن أن تختلف من شاعر إلى آخر، ومن عصر إلى عصر.

وأذكر شاهداً آخر يبدو فيه الشاعر متلقياً صريحاً لشعر غيره وهو التالي :

((استنشد نصيبٌ الكميتَ من شعره فأنشده الكميتُ :

❖هَلْ أَنْتَ عَنْ طَلَبِ الأَيْفَاعِ مُنْقَلِبُ❖

حتى بلغ إلى قوله:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الأُنْسُ وَالشَّنَبُ

فعقد نصيب بيده واحداً. فقال الكميت: ما هذا؟ قال: أحصي خطأك، تباعدت في قولك (الأنس والشنب) ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

ثم أنشده: ❖أبت هذه النفس إلا ادكارا❖

فلما بلغ إلى قوله:

إِذَا مَا الْهَجَارِسُ عَنَّيْنَهَا يُجَاوِبْنَ بِالْفَلَوَاتِ الْوِبَارَ

فقال له نصيب: الفلوات لا تسكنها الوبار.

فلما بلغ إلى قوله:

كَأَنَّ الْغَطَامِطَ مِنْ غَلْيِهَا أَرَاجِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غَفَارَا

قال له نصيب: ما هَجَتْ أسلمُ غفاراً قط.

فانكسر الكميت وأمسك))(32).

فالشاعر نصيب هنا هو المتلقي الصريح، وقد كان يستشهد الكميب شعره بيتاً بيتاً، فعدَّ عليه أخطاءه الواحد تلو الآخر ولم يستطع الكميت أن يدافع عن شعره فانكسر وأفحم.

و ((اجتمع أبو نواس ومسلم يواماً، فقال له مسلم: ما أعلم لك بيتاً إلا مدخولا معيباً ساقطاً فأنشد أي بيت أحببت، فأنشد أبو نواس إنشاد المدلّ:

ذَكَرَ الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاحَا وَأَمَّلَهُ دِيكٌ الصَّبَاحِ صِيَاحَا

فقال له مسلم: قف عند حجتك، لِمَ أمَّله صياحاً وهو يبشره بالصبوح الذي ارتاح له؟ فانقطع أبو نواس انقطاعا بيّنًا، فجعل الجواب له معارضة، فقال له: أنشد أنت ما أحببت من شعرك! فأنشد مسلم:

عَاصِي الشَّبَابَ فَرَاحَ غَيْرَ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدِ

فقال أبو نواس: حسبك حيث بلغت! ذكرت أنه راح، والرواح لا يكون إلا بانتقال من

مكان إلى مكان، ثم قلت: (وأقام بين عزيمة وتجلد) فجعلته منتقلاً مقيماً، فانقطع مسلم، وتشاغبا وافترقا))(33).

برز كل من مسلم وأبي نواس في هذا المثال كَمُتَلَقِّيَيْنِ صَرِيحَيْنِ، لكن هذا التلقي مشوب بروح التنافس، فكان كل منهما يذكر عيوب شعر الآخر حتى افترقا متشاغبين.

وهذا المثال خير دليل على تحكم الذوق الخالص في الأحكام النقدية التي يصدرها المتلقون على الشعر الذي يسمعونه، فأبو نواس أنس بوقت السحر وبالصمت الذي يسوده فتذكر الصبوح وارتاح لذكرها، غير أن صياح الديك أزعجه وقطع عليه أنسه بالصمت فلم يطرب لصياح الديك، في حين رأى مسلم أن على أبي نواس أن يرتاح لصوت الديك لأنه يذكره بالصباح الذي ذكره بالصبوح في الوقت نفسه. وكذلك رأى مسلم في بيته أنه قلق مضطرب من الشيخوخة التي بدأت تزحف إليه فوجد الملاذ الوحيد له في الصبر والتجلد، بينما لم يتبيَّنْ أبو نواس كيف ينتقل الإنسان وكيف يقيم. ((وليست المسألة مسألة تناقض، لأن مشاعر النفس ليست كأحكام العقل لا يمكن أن يمسها التناقض، بل كثيراً ما تكون النفس منطوية على النقائض في مشاعرها المضطربة))(34).

قال مثقال الشاعر: ((دخلت على أبي تمام الطائي، وقد عمل شعراً لم أسمع أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرها، فعلم أني قد وقفت على البيت.

فقلت: لو أسقطت هذا البيتن فضحك وقال لي: إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم، ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره، ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت، ولهذه العلة ما وقع هذا في أشعار الناس))(35) .

المتلقي الصريح وهو الشاعر مثقال هنا أصدر حكمه النقدي من دون تعليل فقد استحسن قصيدة أبي تمام باستثناء بيت واحد منها دون أن يبين السبب في ذلك، فحكمه أيضاً ذاتي يقوم على الذوق المحض.

((أنشد رجل الفرزدق شعراً له، وقال: كيف تراه؟ قال: أرى أن ترده على شيطانك لا يمتن به عليك!))(36) .

فالفرزدق بدا ناقدا ومتلقيا خفيف الظل في حكمه على شعر الرجل، لكن حكمه أيضاً كان غير معلل قائماً على الذوق فقط .

((زعم المدائني أن ذا الرمة قال للفرزدق: كيف ترى شعري هذا يا أبا فراس –لشعر أنشده؟- قال: أرى شعراً مثل بَعْرِ الصِّيرَانِ، إن شممت شممت رائحة طيبة، وإن فتَّتَّ فَتَّتَّ عن نتن)) (37) .

أما حكم المتلقي الصريح هنا وهو الفرزدق فقد اقترن بتعليل عام يدل على عدم الإعجاب بمضمون الشعر، فهو حكم يقوم على الذوق.

((أنشد كثير عزة عبد الملك بن مروان قوله :

لَمَا رَجَعُوهَا عُنْوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ وَلَكِنْ بِحَدِّ الْمَشْرَفِيِّ اسْتِقَالُهَا

فقال للأخطل كيف تسمع؟ قال: هجاك يا أمير المؤمنين، قال: بل حسدته؟، فقال الأخطل: ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن من هذا حيث أقول:

أَهَلُّوا مِنَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَصْبَحُوا مَوَالِي مُلْكٍ لاَ طَرِيفٍ وَلاَ غَصْبِ

فجعله لك حقاً وجعلك اغتصبته))(38) .

بدا الشاعر الأخطل في هذا المثال متلقياً صريحاً بالإضافة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان فبينما أعجب عبد الملك بشعر كثير عزة لم يحظَ هذا البيت بإعجاب الأخطل الذي علَّل قائلاً: إن كثيراً جعل عبد الملك مغتصباً للملك في حين جعله الأخطل حقاً شرعياً له.

((حكى صاحب بن عباد في صدر رسالة صنعها على أبي الطيب، قال حدثني محمد بن يوسف الحمادي، قال: حضرت مجلس عبيد الله بن الطاهر وقد حضره البحتري، فقال : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس؟ فقال: بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق ويتنوع في كل مذهب، إن شاء جد، وإن شاء هزل، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه))(39) .

فالبحتري الشاعر بدا متلقياً صريحاً عندما وازن بين مسلم ين الوليد وأبي نواس فأصدر حكماً نقدياً معلَّلاً.

(وقد يشهد الشاعر ببراعة شعر بعض معاصريه، فإن التنافس الذي يقع بين الشعراء يبلغ أن يصد الشاعر عن أن يشهد لشاعر يعاصره بالإبداع، إلا أن يكون الشعر قد أخذ بمجامع قلبه، وكان فيه شيء من خلق الإنصاف.

أنشد أبو العتاهية بين يدي المهدي قصيدته التي هنأه فيها بالخلافة، وكان بشار حاضراً فملا وصل أبو العتاهية إلى قوله :

أَتَتْهُ الْخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلاَّ لَهَا

وَإِنَّ الْخَلِيفَةَ من بغض لا إِلَيْهِ لَيُبْغِضُ مَنْ قَالَهَا

تملك بشاراً الطرب، وقال لمن بجانبه: أترى الخليفة لم يَطِرْ من فراشه طربًا لما يأتي به هذا الكوفي))(40).

فبشار هنا هو المتلقي الصريح أبدى إعجاباً شديداً بهذه الأبيات دون تعليل لهذا الإعجاب فحكمه على الشعر يقوم على الذوق، لكنه يعبِّرُ من ناحية أخرى عن أنه يتحلى بروح الإنصاف.

((وأعجب الشاعر أبو العميثل ببيتين لأبي تمام من قصيدة يمدح بها عبد الله بن طاهر وهما:

يَقُولُ فِي قَوْمِسَ قُومِي وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَخُطَا الْمُهْرِيَّة القُودِ

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلاَّ وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

حتى إن أبا العميثل لما أراد استعطاف عبد الله بن طاهر على أبي تمام ذكر له البيتين فبالغ عبد الله في إكرام أبي تمام))(41).

يتبين لنا من هذا المثال الأثر الذي تركه النص الشعري في المتلقي الصريح، فالمتلقي الصريح الأول وهو الشاعر أبو العميثل أعجب ببيتي أبي تمام فاتخذ منهما وسيلة ليستعطف عبد الله

بن طاهر الذي يمثل المتلقي الصريح الثاني الذي تفاعل مع بيتي المديح مما جعله يبالغ في إكرام أبي تمام.

نستنتج من الشواهد والأمثلة النقدية التي مرت بنا أن المتلقي الصريح كان حاضراً حضوراً في المواقف النقدية وتباينت مستويات تلقيه الشعر مع تباين أنواعه:

خليفة، شاعراً، لكن غلب على أحكام المتلقي الصريح الذوق وعد التعليل إلا في بعض الأحيان، كما حصل عندما انتقد سيف الدولة على المتنبي بيتين من الشعر، وهو مندرج ضمن ما يسميه النقاد تناسب الأبيات في الشعر. فقد كانت أحكامه النقدية انفعالية تقوم على الذوق المحض أكثر مما تقوم على أسس نقدية علمية .

الهوامش :

(1) جمالية الألفة: شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس، 1993، ص54.

(2) الموشح المرزباني ، تحقيق علي محمد بجاوي، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة(دت)ص467.

(3) ظواهر التلقي في التراث النقدي: د. أحمد محمد، مجلة جامعة البعث، المجلد (22) العدد الأول، ص205.

(4) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق : عبد الواحد النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، ط1، 2000،ج2، ص763-764.

(5) ظواهر التلقي في التراث النقدي: د. أحمد محمد، مجلة جامعة البعث، المجلد (22) العدد الأول، ص206.

(6) الأغاني: تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السّعافين، بكر عبّاس، المجلد الخامس 2008، ط3، ص1723.

(7) تاريخ الأدب العربي: أحمد الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1981 ط2، ص273.

(8) أخبار أبي تمام: الصولي، شرحه وحققه وعلق عليه: خليل محمود عساكر، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندي، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط3 1980،ص230-232.

(9) الموشح، ص226.

(10) الموشح، ص337 -338 .

(11) الموشح، ص374 .

(12) جمالية الألفة، ص56 .

(13) الموشح، ص554 .

(14) الموشح، ص93 .

(15) المصدر نفسه،ص 101.
(16) المصدر نفسه، ص 201.
(17) الموشح،ص249.
(18) الموشح، ص394، 395.
(19) المصدر نفسه، ص537،538.
(20) نفح الطيب من غسن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، 1968، ج 6، ص38.
(21) المرجع نفسه، ج 6، ص38.
(22) الموشح /181.
(23) المصدر نفسه ،ص463-464.
(24) المصدر نفسه ، ص498-499.
(25) المصدر نفسه ،ص548.
(26) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني ج1، 338-339.
(27) المصدر نفسه، ج9 ، ص3289.
(28) الخيال في الشعر العربي،محمد الخضر حسين،المطبعة الرحمانية،مصر،1922، ص89.
(29) المرجع نفسه،ص100.
(30) الموشح، ص108.
(31)المصدر نفسه، ص257-260.
(32) المصدر نفسه، ص304-305.
(33) المصدر نفسه، ص436-437.
(34) أصول النقد العربي القديم: د. عصام قصبجي، منشورات جامعة حلب، سوريا، 1996، ص37.
(35) الموشح /492.
(36) المصدر نفسه /553.

(37) المصدر نفسه /551.
(38) الموشح /236.
(39) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، مكتبة النهضة ، بغداد، 1965، ص5.
(40) الخيال في الشعر العربي، ص96.
(41) المصدر نفسه ، الموضع نفسه.